

قصة

عن صوفي التي لم تتسع لها الحقيقة

نوار جبور *

إلى بسمة العباس التي جعلت حياتي نصاً جميلاً ولا ينتهي.

تبدو البلاد عادية، ما لم تملك سمات شخصية خاصة، لكي تلتقط أن هذا العادي الذي يشوب المناطق الآمنة من الحرب قدّر جداً، فقدارة هذه البلاد تختلف حسب قدرة كل شخص فينا في تأمل الرجال والنساء خاصة، وهن يسرن في الشارع ذليلات، وفي أحسن الأحوال باكتاف حانية. في عام 2014 كان الألم كافياً عبر الفيس بوك، ولأن رصاصات من رصاصات الأبطال الذين يتقاتلون على هذه البلاد لم تصبني استطعت تلقي كل الخيبات الخالية من المعدن، هجران الأصدقاء والقتلة. أمان المدينة التي اسكنها، فمقتلها الوحيد بقاؤها آمنة، بكل جذورها النفسية والتاريخية، وحتى مذاق الطعام فيها، إلا أن الأصدقاء قدر رحلوا في غالبهم أو تغيروا. في المدن الآمنة، يؤمن الحجز ذاكرة حية طويلة. تقناتك الجذور النفسية لتعوي في داخلك. كثيراً ما حملت أنني أملك فماً كبيراً باتفاق الجميع، فلماذا لا أبلغ به كلباً ذا صوت مرتفع لأعوي؟ لكن دون أن أضع يدي على الأرض، السير على الطرفين السفليين رائع. عبر صفحات الفيس بوك، كان خجل النسوة مبالغاً به، وجرأتهن أيضاً، السنين الأولى من عمر الموت في سوريا كان شاقاً، والخلافات الأخلاقية التي لا تنتهي على الصفحات والصور والأرداف وكؤوس الخمر الموسوعة في الصور، ولا مبالاة ساسة الفنادق والبواريد، كل هذا أصبح مملأً، ويسود الأحاديث بيننا خلاف دائم: أين القتلى من صورنا وفرحنا. باتت الصورة مكلفة، ونقدتها مستساغاً. (الآن كلنا أصابنا ملل من صور الحرب).

كنت أبحث عن النسوة الأكثر هدوءاً، أو الأكثر توهجاً، أنا ابن البيئة نفسها التي تنمو فيها المبالغات ومن أجل المبالغات ذاتها يعيش البشر. وجدت صوفي في صدفة ليست محضة، في صدفة معادة ومكررة، لكنها في هذه المرة، عبر الفيس بوك، الذي يملك صندوقاً بريدياً أكثر سرعة ومباشرة، ويتيح بما فيه الهروب والإغلاق والرفض. الفتاة الجميلة التي تُرخي شعرها على عينيها، وتضع جسدها داخل حقيبة سفر، كان المشهد مُدهشاً لي، الصورة تتحدث عنها وعن الحرب، فتاة طويلة جداً لا تتسع لها الحقيقة.

كان علي أن أفعل شيئاً، هي المرة الأولى التي لا تتناهي رغبة في أن أكون مجرد شاب شبق، أمر على صور فتاة وأحاول رمي شغفي لها. هي المرة الوحيدة التي كنت أسأل فيها نفسي، لماذا علي أن أنظر إليها وأعرفها؟ ينتابني شبق عبر الصور لكي أفعل شيئاً، لقد أيقظت النسوة عقول ذكورنا، ما إن وضعت الإناث صورهن، حتى تغيرنا قليلاً، وما إن تأخر وقت الحرب حتى وصلنا للحب، بشريةنا تحتل الحرب لوقت قليل، أو أن صوفي أخرجتني من الحرب لأنام على ما تبقى من نقص قدميتها في الصورة.

لوقت طويل، كنت أستجدي الأرقام التي تدل على تاريخ الصور لكي أعرفها أكثر. ذاتنا في الصورة بلا حُرّاس، والوقت كليل بتذكر الصورة والحديث عنها. كانت صوفي جميلة، مبدعة في جعل فمها ملائماً لأسنانها، هذا البياض الكلاسيكي

للهجرة، والألم للموتى، والماء للظاهرة، والبكاء كبحت عن حقد يلبق بالقاتل. أحببت وجهها ما إن رأيته يتحرك أمامي على سكايب، سريعاً ما قلت لها أستطيع أن أتزوجك من هذه اللحظة. لقد دفعت ثمن هذا، سأقول لكم شيئاً أنا مهووس بانتقاد البشر لضعف شخصي هائل، لكن صوفي رمتني بيسر. ببرود شديد أعادت ترتيب هوسى، وكثيراً من جنوني بات جميلاً. كانت باردة وتتحرك ببطاء، كثيراً ما فركت وجهي

هناك خداع في تأمل الصور، لكي أحتمي منها جعلتني أقرب أكثر، قالت لي إنها في دبي. عرفت حينها أنها تبذّر وقتها عبر الشاشة، وتنتظر كطفلة أباه العائد من العمل، لكي تأكل معه، أو تمارس فعلاً بشرياً تفتقده كما في بلدي أنا الذي يجتمع فيه البشر كتل متراكمة عليهم يفعلون شيئاً. لقد بدأت اكتشاف صوفي وبدأت تعلم الضحك، بعد مسيرة طويلة من الخيبة والحزن، كان العالم قاسياً كما الآن وأنا حزين من الحرب والقتلى والمظلومين، حزين لأنني فتحت مساحات قلبي لكل عابرة، وهوس جنسي أصابني لكي أبدو شيطانياً. أو صياداً جنسياً بعين محترفة. في الحرب يبدو الشبق الجنسي ملائماً لطبيعة الكابة، وطبيعة الخوف، لا أعرف كيف أبرر للنساء طمعنا الذكوري النقي في الارتجاف أمامهن، هنا حيث نشعر بأن جسداً عثرة الحرب الوحيدة فنذفها باتجاه أسهل الرغبات. من هنا أسأل نفسي أنا مقتنع بقول جبريل مرسيل. «لا يُمكن أن أقول إنه جسمي أنا، ولا إن جسمي ليس لي، ولا إن جسمي لغيري»، إلا أنني ما إن رأيت صوفي داخل الحقيقة حتى قلت إن جسدي هو جسدها سأتسع معها في حقيبتها.

كان مبكراً أن أقول لها هذا لكنني قلته. كانت صوفي توزع صورها داخل الحقيقة عبر الفيس بوك، توزعها على أعيننا، لم ترفع صوفي حقيبتها عالياً، أبقتهما لتحتوي جسدها، هذه الإشارة التي لم تصلني إلا مؤخراً. صوفي تضع جسدها دوماً في حقيبة لترحل، عليها تجد نفسها كما تحب، فلا يحميها منا ومن ألمها إلا حقيبتها.. هذا لا يعني أنني لم أسافر مثلها لكن بعضنا يُعبر عن سفره بشعره، وبعضنا يخرج من البلاد ويصور يُصور شيئاً، فكثيراً ما يكون اكتشاف الذات خارج البلاد لا يعني تخارج الذات نحو الآخرين. صوفي التي أصبحت أعرفها أكثر أحببت أن تضع جسدها داخل حقيبة لكنها تملك أكثر من هذا لتقول، الصور لا تُعبر عن أمكنتنا ولحظتنا فقط، بعض الصور هي الرغبات كلها. صورة حية واحدة، قد تشبه صورة المقبرة التي يُنقش عليها اسم الميت وسنه ومولده، صورة تتحدث عن الموت يساويها صورة تتحدث عن الحياة أيضاً. صورة لصوفي في الحقيقة كانت أنطولوجيا كاملة لها. هذا لا يعني أن وقت كتابة هذا النص هو نفس وقت هذا الاكتشاف لقد تأخرت كما دوماً.

كانت صورتها تتحدث، وحقيبتها أيضاً، الضوء خافت، أنا المصاب بحمي الضوء اضطرت لأن أضغط عشرات المرات لكي أرى وجهها بشكل أفضل. فتاة تجلس في حقيبة، قدمها طويلتان جداً. إنها الحرب. هذا تفسير شائع لأجساد البشر، لتحركاتهم، الحقائق

أعلم حينها أنها صامتة، وصعبة ونصف رغباتها تملك صناديق لا تُفتح بسهولة. كنتُ مهرجاً بسيطاً، مهرجاً خجولاً صغيراً وناعماً وكانت صوفي المألحة تعفن جروحي سريعاً أو هذا ما ظننته. صوفي عفت جروحي، قلمتها، بقدميتها الطويلتين، قشرت الصدا عن بابي، التهمتته، ولأنها ترسم بدقة، لم تر خطوط وجهي، ولا سذاجتي. لقد حدثتني عن نوار الذي تراه.

* كاتب سوري

عمل
لبهرام
حاجو

المساهمات الإبداعية في ملحق «كلمات»

يمكن إرسال المساهمات الإبداعية (من قصص وقصائد ونصوص حرّة وترجمات وصور فنيّة ورسوم) إلى ملحق «كلمات» في جريدة «الأخبار». على العناوين الإلكترونية الآتي:

KALIMAT@al-akhbar.com

على أن يرفق كل إرسال بالإسم الكامل لصاحبه أو صاحبتة. وعنوان الإقامة، ورقم هاتفه لأي تواصل محتمل.

بالنسبة إلى الترجمات الأدبية، تعطى الأولوية لنصوص خضعت لانفاذ مسبق مع التحرير. ويستحسن أن يكون التعريب عن اللغة الأصلية التي كتب فيها النص. مع تعريف واف بالكاتب (ة) والمترجم (ة).

تحتفظ إدارة التحرير لنفسها بقرار نشر المساهمات المقترحة أو عدمه، من دون أي شرح أو تبرير أو مراجعة.